۳۲۵/۱

۱۶۶۲۶

مجله	العرفان
تاریخ نشر	جمادی الاخر ۱۳۸۴
شماره	۴ مجلد ۵۲
شماره مسلسل	
محلّ نشر	لبنان
زبان	عربی
نویسنده	رشید وهبی
تعداد صفحات	۴۵۶ - ۴۵۰
موضوع	الکتاب النحالد -۲-
سرفصلها	وجوه اعجاز در قرآن
کیفیّت	
ملاحظات	

الكتاب الخالد

بقلم رشيد وهبي

- ٢ -

البناء المعنوي والعقلي في القرآن

نزل القرآن في قوم لم تكن لهم غير السليقة في العقائد والعادات الاجتماعية، كانت بيئتهم ضيقة محدودة قليلا ما يستطاع النفاذ منها . والصحراء القاحلة علمت العربي شظف العيش وفرضت عليه ضيق الافق وقلة الافكار وضآلة المعارف . فما ان نزل القرآن حتى ملك نفوس العرب وعقولهم لانهم وجدوا فيه معان جديدة واشياء لم يكن لهم بها عهد . « وما درى عربي واحد من اولئك لم جعل الله في كتابه هذه المعاني المختلفة ، وهذه الفنون المتعددة التي يهيج بعضها النظر ، ويشحذ بعضها الفكر ، ويمكّن بعضها اليقين ، ويبعث بعضها على الاستقصاء ، وهي لم تكن تلتئم على ألسنتهم من قبل . بيد ان الزمان قد كشف بعدهم عن هذا المعنى ، وجاء به دليلا بيناً منه على ان القرآن كتاب الدهر كله » .

والقرآن انما يخاطب العقل قبل كل شيء ويدعو الانسان الى تحكيم عقله في المسائل التي تعرض له ديناً ودنياً ، فالايمان لم يفرضه القرآن فرضا على الناس ، بل طلب اليهم الاستدلال عليه بانعام النظر في ملكوت السماء والارض والخروج من ذلك بما يثبت الايمان بخالق عظيم جبار ، ومن اذا قال لشيء كن فيكون . والقرآن الكريم لا يخلو ، في معظمه ، من دعوة الى الاتخاذ من العقل المقياس الوحيد لامور الناس كافة . من ذلك قوله: «ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » وقوله : « أفلا ينظرون الى

الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبـال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت » ويقول : « أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» ويقول ايضاً في تذييل كثير من الآيات « ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » « أفلا تعقلون » «أفلا تتفكرون» « لعلهم يتفكرون » وكل ذلك يدلنا على ان الدين انما يبنى على الادراك النير والعقـل المسترشد المتقبل لكل دليل وقرينة .

ثم ان كتاب الله يبتعد عن تكليف الناس ما ليس في طاقتهم ويسهل عليهم امور دنياهم وييسر لهم دينهم فلا يلزمهم شيئاً لا يقدرون عليه . قال تعالى : « قال يا قوم أرأيـتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم، أنلزمكموها وانتم لها كارهون » وهو ان اوجب عليهم امراً او تشريعاً او حكماً بيّن اسباب ذلك وضروراته فقال مثلا : « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون » .

وعن معاني القرآن الكريم يتحدث الرافعي في كتابه اعجاز القرآن فيقول : « اننا نرى اسلوب القرآن من اللين والمطاوعة على التقلب والمرونة في التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفـة ، فهو يفسر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه ... وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم الا الفطرة ، كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة واهل العلوم وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، واثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التي كانت مغيبة» .

وغزارة معاني القرآن يعبر عنها القرآن بنفسه بصورة لا يجدها العقـل : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » .

التصوير الفني في القرآن

التصوير الفني ظاهرة من ظواهر اعجاز الكتاب الكريم . والدليل على ذلك شعور المرء اياً كان ، بعجزه وقصوره امام آياته الكريمة التي يقف أمامها الخيال البشري جامداً مبهوراً بعظمتها ونفحتها الإلهية : « الله نور السماوات والارض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية

ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم » (١) .

وصور القرآن اعمال الكفار في آية من سورة النور فقال : « والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . او كظلمات في بحر لجي يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا اخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » (٢) .

ولنلاحظ حسن وصف التأثير العاطفي على الاعصاب في قوله تعالى : « معاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدي الله يهدي به من يشاء » وقوله تعالى في تصوير كلمات الله : « ولو ان ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله » .

وهكذا صب القرآن الكريم الافكار الذهنية الجامدة في قالب فني رائع يفيض حيوية وحركة ، فاذا هي تحولت الى لوحة فنية ناطقة تأسر القلب وتخلب اللب (٣) .

ضرب الامثال والتشبيه

وجد القرآن الكريم ان ضرب الامثال هو من أفضل الطرق للتذكير وارسخها في العقول واثبتها في الأذهان . قال تعالى في سورة الزمر : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآناً غير ذي عوج لعلهم يتقون » وقال : « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » .

وضرب الامثال في القرآن كثيراً (٤) وهو لا ينفذ الى موضع استلزم مثلا او تشبيهاً او ورأيت صوراً رائعة أماطت بالمعنى فأخرجته ضمن اطار كامل مفصل يظهره للعيان

---

(١) تعني الآية باختصار ان صدر المؤمن – وهو الزجاجة – النقي كوكب شبيه بالدر يوقد من كلام الله – وهو الشجرة المباركة .

(٢) البقيعة هي المنخفض من الارض . والآية الاخيرة تعني ان اعمال الكافرين كبحر كثير المياه يغشاه ظلام دامس يتخبط فيه الكافرون فلا يعقلون شيئاً .

(٣) للتوسع في التصوير الفني في القرآن يرجع الى كتاب الإستاذ سيد قطب في هذا الموضوع .

(٤) ذكرت اكثر الامثال في كتاب « العظات الدينية في الامثال القرآنية والنبوية والعربية » للاستاذ علي فكري .

ويبرزه الى النور . ولنز كيف صوّر الله الايمان : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار » (ابراهيم ٢٥ ـ ٢٦) وقال تعالى عن المنافقين : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون . او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شيء قدير » (البقرة ١٧ ـ ٢٠) .

خلو القرآن من الهفوات

في اكثر ما نقرأ من الكتب نجد ، ان آجلا ام عاجلا ، بعض الأخطاء او التناقض او المآخذ . وجميع الكتب والمصنفات ، ادبية كانت او علمية ، والتي وضعها كتاب الأزمنة الغابرة تنقض اليوم بعض نواحيها الخاطئة التي بنيت على ما ساد في تلك العصور من أفكار وعادات . كذلك كتاباتنا وأفكارنا اليوم ربما نقضت في المستقبل .

وخلو القرآن الكريم من الخطأ والتناقض ، وصموده طوال ما ينيف عن ثلاثة عشر قرناً ومجاراته ومسايرته لشتى العصور التي مر بها انما يدل دلالة بينة على انه ليس من صنع البشر لان صنع البشر ناقص يخطىء ، أما صنع الله فكامل معصوم من الخطأ « قرآناً عربياً غير ذي عوج » .

الغيب في القرآن

معرفة الغيب ناحية تقصر عندها قدرة الانسان ، وان ادعى معرفة ذلك فلن يكون تنبؤه الا تخرصاً وتلفيقاً يكشف ولو بعد حين . واشتمال القرآن ، فيما اشتمل ، على احداث غيبية ثم حدوثها وتحقيقها تدل فيما لا يقبل الشك على انه إلهي معجز . وهذه النقطة بالذات تظهر لنا اعجاز القرآن لان علم الغيب مختص بالله وحده .

والآيات المشتملة على تنبؤات ، كثيرة ومتفرقة . منها قوله تعالى : سيهزم الجمع ويولون الدبر » يعني كفار قريش يوم بدر ، فبالرغم من انهم كانوا ألفاً من الرجال مسلحين وكان

المسلمون وقتئذ ثلاثمائة فقد تمكن أصحـــاب الرسول الكريم ﷺ من هزم الكفرة وتفريق جمعهـــم .

ومن التنبؤ قوله : « ألم . غلبت الروم في ادنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » فغلبت الروم أهل فارس يوم الحديبية واخرجوهم من بلادهم وذلك حقاً بعد سبع سنين .

حتى ما توصل اليه الانسان من الاسلحة والقذائف الحديثة والطائرات اشير اليـــه في القرآن في قوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » . وقـــد قال ابن مسعود وهو احد الصحابة عن هذه الآية انها نبأ عن نبي عمن يأتي بعد وقد صح ذلك .

ومن الغيب وعد الله تعالى لعباده بالنصر « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا » وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى بأنه سيجعل امته خلفاء في الارض ائمة الناس والولاة عليهم وبهم تصلح البلاد والعباد . ثم انتشر الاسلام في اقاصي الارض وادانيها وتحقق نصر الله .

وسنرى عند البحث في معجزات القرآن العلمية ، انها لا تخرج عن كونها ، في قليل او كثير تنبؤاً بالمستقبل وما يجره من أحداث .

قصص الانبياء والامم في القرآن

لورود القصص في القرآن الكريم حكم كثيرة منها ما ذكره الثعلبي قال : « اظهـــاراً لنبوته ﷺ ودلالة على رسالته . وذلك ان النبي ﷺ كان امياً لم يختلف الى مؤدب ولا الى معلم ولم يعرف له طلب شيء من العلوم الى ان كان ما كان فنزل عليه جبريل «ع» ولقنه ذلك فأخذ يحدث الناس بأخبار ما مضى من القرون وسير الأنبيـــاء الماضـــين والملوك المتقدمين فمن كان من قوم عاقلا موفقاً صدق بما يوحي الله اليه ... وكان ذلك معجزة له ودليلا على صحة نبوته » .

ولو صح ان محمداً قد انقطع الى عالم نصراني او يهودي لما وجدنا خلافاً او فرقاً بـــين بعض قصص القرآن والقصص التي وردت في الكتب المقدسة بالرغم من ان هذه الكتب لم تسلم من العبث فهي مثلا تنسب لبعض الانبياء اعمالا وافعـــالا لا تتفق وكونهـــم رسلا

من عند الله اما في القرآن فهم مثال القدوة الصالحة المتصفة ـ بالكمـال ومحاسن الاقوال والافعـال . .

ومن حكمة ورود القصص في القرآن التأديب والتهذيب والعبرة . قال تعالى : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب » وقال : « وهدى وموعظة للمتقين » ومنها احيـاء ذكر الامم الخالية والانبياء السابقين فقد جاء في سورة هود بعد قصة نوح « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا » .

والقصص في القرآن اكثر ما ترد في السور المسماة بأسماء بعض الانبياء لتروي قصصهم وقصص اقوامهـم ، ومنهـا سورة يونس وهود ويوسف وابراهيم ثم سورتا القصص والانبياء . .

التشريع القرآني اعجاز

ترى هل يستطيع فرد واحد ، مهما اوتي ، ان يؤسس دولة وينشر ديناً ويبني حضارة، ذلك هو محمد بن عبد الله . اما الدولة والدين والحضارة فكل ذلك قـد قام على تشريـع جبّار اتى به القرآن وفصله واحكم وضع أسسه وركائزه . واعجاز التشريـع القرآني في ناحيتين :

١ً ـ كمال التشريع وكفايته :

التشريع في القرآن يجمع نواحي الحياة الانسانية كلها ويبين أحكامها .

ففي الحكم مثلا قال : « وامرهم شورى بينهم » و « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر » . ووضع النظام الاقتصادي للدولة ومنه أنظمة الوراثة والوصـايا وتحريم الربا والاحتكار والقمار والغش في المعاملات . ووضع العقوبات « ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب » (البقرة ١٧٩) ونظم العلاقات بين الامم وفي المجتمع وبين افراد الاسرة « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . » (الحجرات ١٣) واقر المساواة : « يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنياً او فقيراً فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا ، وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً » (النساء ١٣٥) .

ورب من قائل ان هناك بعض مسائل التشريع لا ينص عليها القرآن .

والجواب ان هذه المسائل ثانوية وردت أحكامها في الأحاديث النبوية الشريفة ، فان لم

تشتمل عليها ، ومن النادر ان يحدث ذلك ، فالرجوع الى اجتهادات الائمة واستنباطات علماء الشريعة المستمدة من القرآن او من الحديث .

٢ ـ صلاح التشريع القرآني لكل زمان ومكان :

« ما ضاقت القوانين الشرعية الاسلامية عن حاجة ولا وقفت عقبة في سبيل مصلحة او عدالة ، بل نراها وسعت مصالح الناس على اختلافهم ، فقد كانت الدولة الاسلامية في عصورها الذهبية ، ممتدة رقعتها من بلاد الصين شرقاً الى جبال اسبانيا غرباً ... وكانت هذه الولايات المختلفة ـ تضم امماً متباينة الاجناس والعادات والاديان والمصالح من عرب وفرس وروم وغيرهم . وقد دبرت الدولة الاسلامية شؤون هذه الامم والشعوب بقوانين من شريعتها ... وما ضاقت القوانين الشرعية عن حاجة ولا قصرت عن مصلحة ولا تنافت مع مصالح مسلم او يهودي او نصراني او وثني بل عاشوا في ظل عدالتها وتسامحها عيشة راضية » .

والنصوص التشريعية في القرآن ، التي تؤلف المرجع الاول والاخير للشريعة الاسلامية (١) مرنة غير متحجرة او جامدة . ويدلنا على ذلك عمومية الآيات التشريعية واطلاقها في غير تقييد . « واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » و « وامرهم شورى بينهم » تعني اتخاذ الشوري كنظام في الحكم لتأمين العدالة كيف كانت تلك الشورى او الطريقة التي تنفذمنها والآية « ولا تبخسوا الناس اشياءهم » تنظم طرق المعاملة بين الناس بشكل عام . فتأمل المرونة الظاهرة في هذه الآيات تدرك مرونة التشريع في القرآن وصلاح هذا التشريع العظيم لجميع الحالات والظروف.

رشيد وهبي

طبيعة المرأة

دخل الزوج متجراً للملابس ليشتري لزوجته فستاناً .

فسأله البائع :

ـ اي مقاس تريد ، واي لون تفضل ؟

فأجاب الرجل .

ـ لا يهم المقاس او اللون ، لان زوجتي على كل حال لا بد من ان تجيء غداً لاستبداله!

(١) روح الدين الاسلامي ـ عفيف طبارة . (ص ٢٣٩) .

١٦٦٢٦